حسن الأمين.. مؤرخ قضية

د. إبراهيم بيضون(*)

في ذلك العام (١٩٠٨) المشهود في تاريخ السلطنة العثمانية، كانت ولادة حسن الأمين في دمشق، حيث التاريخ العاصف أو "المنقلب" في التوصيف الخلدوني، فهذه المدينة التي ارتفعت فوق أبراجها رايات الإسلام، قبل أن ترتفع في مدينة أخرى في عالم ذلك الزمن، وكانت ما تزال في تاريخها العاصف منذ "الفتح" بقيادة أبي عبيدة بن الجراح (٦٣٥م)، حتى دخول فيصل بن الحسين بقواته إليها (١٩١٨م) في سياق الثورة العربية، مختتمة الفصل الأخير من السيادة العثمانية الطويلة على المنطقة. كان حسن الأمين حينئذٍ في العاشرة من عمره، وقد تفتحت عيناه على أحداث كبيرة في تاريخ الأمّة العربية التي جسدت الشام نبضها وصورتها المستقبلية، إذ بدت هذه قاتمة تنذر بانكسار الأحلام، منذ أن تكشّفت الأوراق السرّية، وقد رسمت خارطة للمنطقة تجعلها تحت سيطرة الدولتين المنتصرتين في الحرب، مطوّحة بالمشروع القومي للعرب والذي كانت "جمعية العربية الفتاة" ــ ومقرّها دمشق ــ الداعية إليه عبر فيصل نفسه مع الثورة في الحجاز.

لقد شهد الفتى حسن الأمين عن كثب هذه التطورات، وسجّل مشهداً حياً منها في كتابه القيِّم الذي صدر قبل خمس سنوات من رحيله "سراب الاستقلال في بلاد الشام" فقال: "شهدت الدنيا حدثاً لم تشهد نظيراً له منذ أكثر من أربعمائة سنة. هذا الحدث هو أن جيشاً عربياً يقوده قائد عربي، وترفرف فوقه راية عربية، قد دخل مدينة عربية باسطاً سلطانه فيها باسم العرب" على حدّ تعبيره. ولعل هذا الكتاب من أفضل ما أرّخ لهذه المرحلة الصاخبة، مكتسباً فرادته في المنهج على الأقل، إذ لم يعد فيه مؤلفه إلى الوثائق فحسب، بل إن كثيراً من تداعيات المرحلة كان شاهداً عليها، حاضراً فيها من موقعه طالباً وقدته الحماسة، كما الآخرين الذين كانوا مادة الصخب والثورة في ذلك الوقت، ومن هذا المنظور فهو ينقض قول الكاتب البريطاني "فرومكين" بأن القائد "اللنبي" سمح لفيصل باحتلال دمشق وإدارتها، ويردّ عليه: أن فيصلاً خشي أن يسبقه الإنكليز إلى دخول دمشق، فعمد إلى إرسال رسول إلى سلطان الأطرش ليجمع رجاله، ومن ينضمّ إليهم من المتطوعين السوريين.. وأن يسرع الجميع بقيادة الرجل الثاني في الجيش العربي بعد فيصل (الشريف ناصر) الذي يُكسب وجوده على رأس هؤلاء المقاتلين شرعية عسكرية تجعلهم جزءاً من الجيش العربي وممثلين له.

وهكذا سبق الشريف ناصر بمتطوعيه إلى الدخول إلى دمشق قبل الإنكليز، وأعلن فيها الحكم العربي...".

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية.

وعلى صغر سنه، تأثر حسن الأمين بتلك الأحداث التي وجد نفسه في صميمها، لا سيما وأن البيت الذي نشأ فيه، لم يُشكّل مرجعية دينية فحسب، بل كان مرجعية وطنية، يستلهم منها القادة المناضلون، التوجيه والتسديد والقرار الصائب، والفكر الجريء في التصدي للجهل والتخلف، والانصياع لإرادة المستعمر الجديد. في هذا البيت تفتح عقل الابن على القيم فيه، وتشربت روحه أفكار الثورة والتمرد على الجمود. ولم ينفك على خطى الأب المتنوّر حتى بات لصيقاً به، حاملاً رسالته، ومفعماً بالتراث الذي أبحر بعيداً فيه، وناشراً روحه على مساحة الدور الكبير الذي كرّس له حياته وقلمه وضوء عينيه.

في هذا البيت أيضاً، تعرّف حسن الأمين على نجوم ذلك الزمن من أقطاب السياسة والعلم والأدب، وكان ما يزال شغوفاً بمجالسهم، خافق القلب بذكرياتهم، مستعيداً اللحظات الجميلة معهم، ولا ينفك يردّد بحميمية مفرطة: "سقياً لها تلك الأيام" في رحابهم.

وهكذا نشأ حسن الأمين، شاعراً يحلق على جناح فراشة، وتعصف بمشاعره الأحلام العربية، فلا يكاد يرقأ إلى سكون أو يستقرّ له مقام خارج صخب القضية ومواكب التظاهرات مخترقة أحياء المدينة الرازحة في تحدياتها الصعبة.

ولعلنا نبدأ هنا بالتعرّف على حسن الأمين المؤرخ، الذي مارس هذه الوظيفة على أرض الواقع، قبل أن يمتشق قلمه مدوّناً تلك الأحداث على الورق، ولكنه على الرغم من ركام السنين لم يغادر مشاعره، وظلّ يؤرخ بانفعال لقضية كان حاضراً بقوة في بعض تداعياتها الساخنة، الأمر الذي أخذ مع الوقت ينسحب على منهاجه. ذلك أن حسن الأمين الطالب الذي عاش في زمن الوجد القومي، وراودته عن كثب أحلام الوحدة العربية، هو نفسه القاضي الذي كان العدل ما ينشده على منبر القضاء، مصدراً أحكامه بعد معاناة وتشاور مع الفقهاء، حتى لا يشوبها خطأ ما يثقل ضميره المرهف النقي. ولقد درج على ذلك مؤرخاً، ديدنه السير في خط مستقيم واضح، يفصل بين الخير والشر، وبين العدل والجوْر، وبين النور والظلام، وليس أخيراً بين الجذرية في المبدأ والانحراف والعبث بالقيم وتزييف الشعارات.

هكذا يتكوّن حسن الأمين مؤرخاً في بدايات شبابه، وإن لم يعلن عن ذلك في حينه، إذ كانت المرحلة تستحث الشاعر فيه، معبّراً عن قلقه وهواجسه بقصائد ومقالات كان معظمها يأخذ طريقه إلى النشر في مجلة "العرفان" تلك التي يعترف بفضلها الكبير على جيله، وبدورها الساطع في مناوأة الاستعمار، والدفاع عن القضية العربية، وقضايا العالم الإسلامي.

ولعلّ التاريخ الحديث والمعاصر الذي واكب بعض أحداثه ما كان يشدّه في تلك المرحلة، ولكن التاريخ الإسلامي ما أبحر بعيداً فيه، محققاً على مساحته إنجازات مهمة، سواء في المنهج الواضح، أو الرؤية المنفتحة، أو القراءة المبدعة للنصّ الآسنة فيه أفكار الأزمنة المغلقة. فكان ــ وأبسط القول أن نعترف بذلك ــ مؤسس مدرسة في التاريخ الإسلامي، لها سماتها ومنهاجها ونكهتها الخاصة، فضلاً عن الثوابت الراسخة فيه.

ولكن كيف درج حسن الأمين إلى أن يكون مؤرخاً على هذه المساحة، منكفئاً عن الشاعر الذي كان متوهجاً فيه، بل عن التاريخ الحديث الذي اندلعت في مشاعره قضاياه

الساخنة، وكان مترعاً بأجوائها والتحديات العاصفة بها؟.. ثمة الكثيرون جداً ممن يربطون هذا التحوّل بتراث الأب العلامة الكبير السيد محسن الأمين، الذي وقف حياته على العلم، مصنّفاً في الفقه والتاريخ، لا سيما السفر القيم، رفيق عمره، عنيتُ به "أعيان الشيعة"، الذي لم يكن قد اكتمل حين رحيله، فكان على ابنه اللصيق به أن يتصدى للمهمة، ويتابع الموسوعة الأثيرة بدأب وجهد وتصميم، إلى روح رسالية أخذها جميعاً عن السلف العظيم.

لا شك أن التجربة أسهمت في هذا التحوّل، من الشاعر إلى المؤرخ شخصية حسن الأمين، وإن لم يغادره كلياً الموقع الأول، إذ كانت نفحات منه تعبق في وجدانه، فيضفرها شاعراً باقات زاهيات، أو ينثرها مؤرخاً عبارات أنيقة، مترعة بالحنين.. ولا شك أيضاً أن النشأة في رحاب الوالد وعالمه، كان لها تأثيرها في خطابه الذي بقي ساطعاً طوال حياته. ولكنها قراءة خاطئة تلك التي ترى إليه ظلاً للأب أو نسخة عنه.. أو مجرد مكمّل لـ "أعيان الشيعة" الذي يبقى في وعي الناس موسوعة السلف، على الرغم من "المستدركات" والإضافات التي حققها الابن على مدى أكثر من أربعين من الأعوام. ذلك أن حسن الأمين، ومنذ أن كان طالباً في كلية الحقوق بجامعة دمشق، أخذ يستهويه التاريخ ــ كما يصرّح في مذكراته "حلّ وترحال"، وهو التراثي المزاج والهوى والثقافة، ناشراً مقالات في هذا المجال، على الرغم من الانصراف وقتاً إلى تدريس الأدب العربي في جامعة بغداد، والتحاقه وقتاً آخر بسلك القضاء في لبنان.. ولكنه سرعان ما وجد نفسه حيث شاء أن يكون، وحيث الدور الذي كان مؤهلاً للقيام به، فضلاً عن الظروف التي جعلته قريباً من الأب، المؤرخ الموسوعي، وكانت كلا التجربتين: مدرساً للأدب وقاضياً مرهفاً، ما انعكس على منهاجه وأسلوبه معاً، إذ اكتسب الأول شيئاً من الحدة، بمثل ما اتسم الثاني بالطلاوة والرشاقة والانسياب.

وهكذا من باب التراث الذي أفاح فيه حسن الأمين، مناضلاً وشاعراً وقاضياً، خاض التجربة بجدارة على مساحة التاريخ الإسلامي. وهنا ينفصل ــ خصوصاً في المنهج ــ عن موكب الوالد ويختلف كلياً عن طريقة الفقهاء ــ المؤرخين الذين ذهبوا بعيداً في التفاصيل، ولم يقاربوا ــ إلاّ قليلاً ــ الحقائق التي ظلت غائمة في تصانيفهم السردية الجافة، خلافاً لذلك، خاض في الإشكاليات الصعبة، مكتنهاً رهافة المؤرخ الذي يبحر في النص، سابراً غوره، وليس منتشراً السطح، مقتبساً ما راكمه الأوائل من أخطاء أعادت إنتاجها عبر العصور.

وفي رؤيته إلى التاريخ، كان حسن الأمين يتشاطر بصورة ما الرؤية الخلدونية النقدية التي أخذت على المؤرخين اتكاءهم على أسلافهم، مسلّمين بصحة رواياتهم، دون مراعاة تبدّل "الأيام والأحوال" في حركة الزمن، مما انعكس جموداً على الفكر التاريخي، ما زال ينسحب على معظم الدراسات التاريخية المعاصرة. كان ذلك واضحاً في الاختيارات الصعبة التي ذهب إليها حسن الأمين، وفي مقدمتها كتابه الصادر في السبعينيات تحت عنوان "الغزو المغولي للبلاد الإسلامية"، وليس ممكناً في الواقع الخوض في مثل هذه الموضوعة المعقدة، من دون التسلح ــ على الأقل ــ باثنين من الشروط:

أولهما، الثقافة الشمولية للمؤرخ، وثانيهما، ترويض النفس على الصبر والإبحار بعيداً في شعاب ذلك الزمن وتحولاته العاصفة، التي ما يزال المؤرخون يتهيبون الذهاب إليها.

ولو عدنا إلى هذا الكتاب، لوجدنا حسن الأمين مكتمل العدة للمسير في الرحلة الشاقة، منافساً في منهاجه كبار الباحثين، المتشبثين بالقواعد الأكاديمية، على الرغم من دخوله حلبة التاريخ من غير أبوابهم، فهو يعرض لنا مصادر بحثه، متوقفاً عند اثنين من المؤرخين المعاصرين للمرحلة: أحدهما، ابن الفوطي الذي يصفه بمؤرخ العصر المغولي، وكان قد وُلد في بغداد قبل نيف وعشر سنوات من اجتياحها الشهير (٦٥٦هـ) على يد هولاكو، وقيد أسيراً من مكان إلى آخر حتى عثر عليه نصير الدين الطوسي الذي كان له دور بارز في إنقاذ الإسلام من الهجمة المغولية العاتية، فاحتضنه ورعى سيرته العلمية الباهرة، وقد جاء تاريخه للمرحلة مختلفاً في نهجه عن طرائق أسلافه المؤرخين، فلم يحصر اهتمامه بطبقة الحكام وما يدور حولهم، ولكنه كان أكثر اهتماماً بتاريخ المجتمع وحياة الناس العاديين، وهو ما يتجلى في وصف الأمين له بمؤرخ الشعب، واجداً في أخباره مادة ثمينة لكتابه. والمؤرخ الثاني، هو رشيد الدين الهمذاني مصنّف كتاب "جامع التواريخ" والذي وُلد في همذان (٦٤٥هـ) في وقت مقارب لولادة ابن الفوطي، وتدرج في المناصب حتى أصبح وزيراً للسلطان المغولي غازان. وقد حفل هذا الكتاب بأخبار شديدة الأهمية عن حروب المغول وتدمير كبريات المدن، من دون مراعاة العلاقة معهم، متسلحاً بالموضوعية ونزاهة الرأي، وقد توقف مطولاً عند معركة "عين جالوت" ومقدماتها، لا سيما المؤتمر الذي عقده سيف الدين قطز المملوكي، استعداداً لصد الغزو المغولي عن مصر.

هكذا إذاً، ينهج حسن الأمين في كتابه الفريد، مكتنهاً أسرار المرحلة، وملمّاً بالمفاصل الأساسية للغزو الشهير، من دون أن يكون الحدث فقط ما يأخذ باهتمامه، ولكن ما يعنيه أساساً كان يخوض فيه قارئاً ثاقب النظر، محيطاً بالتداعيات فيه وحوله، سواء من المنظور الاجتماعي ــ الفكري، أو المنظور السياسي ــ العسكري، فلم يأخذ هذا الكتاب الصدى الذي أخذه، لولا تلك النظرة التجديدية الواضحة فيه، على مستوى الأسباب والمعالجة والنتائج. وإذا كان ما يؤخذ عليه، افتقاره إلى الحواشي التي تعتبر من وجهة نظر المؤرخ العلمي، أساساً في البحث، وبها يتكامل السياق في ظل منهج متماسك، فإن صاحبه الذي قليلاً ما اعتمد هذه الحواشي في مؤلفاته، كان ما يزال متأثراً بصورة ما بمناهج الفقهاء ــ المؤرخين الذين أهملوها، إهمالهم في الغالب للمقدمات والخواتيم في تصانيفهم ودراساتهم.

ولكن حسن الأمين بدا أكثر التزاماً بهذه القواعد في البحث التاريخي، لا سيما "المقدمة" التي جللت كتبه الصادرة بعد "الغزو المغولي"، مثل "الإمام الرضا (ع) والمأمون وصلاح الدين"، و"الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين"، و"الإسماعيليون والمغول"، و"غارات على بلاد الشام"، وصولاً إلى كتابه النفيس في التاريخ الحديث الذي لفتنا النظر إلى أهميته في مطلع هذه المقالة: "سراب الاستقلال في بلاد الشام". بيد أن الحواشي ظلت غائبة ــ إلا قليلاً جداً ــ عن هذه الكتب، ولكن من دون أن يكون لذلك تأثير سلبي على

منهاجها، الذي اتسم عموماً بالرصانة والوضوح. فضلاً عن الإمساك بناصية اللغة، كانت لديه المقومات كافة لتحقيق عمل إبداعي متميز، أين منه الأعمال الكثيرة التي اختنقت بالحواشي، من غير أن تذهب إلى العمق، أو تقارب فعلاً الحقيقة التاريخية.

وإذا كان الكتاب يُقرأ من عنوانه، فإن العناوين السالفة تكشف عن المنحى الإشكالي الذي سار فيه حسن الأمين، متفادياً التقليد والسير على خطى الأسلاف، قديماً وحديثاً، لا سيما المؤرخين الذين عاصرهم وكان على احتكاك بهم، سواء في لبنان أو العراق، فقد كان شغوفاً بإثارة القضايا التي قدّمتها الروايات بصورة ملتبسة أو مغلوطة، أو بصورة كانت محاباة الحكام واضحة فيها، الأمر الذي أخذ به إلى إصدار موسوعته "دائرة المعارف الإسلامية الشيعية"، إيماناً منه أن الشيعة، كاتجاه سياسي معارض، قد نالهم الكثير من الظلم، من الطبقة الحاكمة، وأهل الفكر الدائرين في فلكها. ولقد فُهم حسن الأمين خطأً في هذا السياق، حين اتهم بالتعصب لمذهبه، مع العلم أنه في تكوينه الثقافي والتراثي والقومي، كان الأكثر بعداً عن هذه التهمة، وجلّ ما كان يعنيه في هذا العنوان الشيعي، هو إعادة القراءة لتاريخ فئة كان الإسلام الجذري في صميم مشروعها الذي قاتلت في سبيله، وثارت تكراراً لتصويب المسيرة المنحرفة، منذ أن طُوّح بالخلافة الراشدية وإقامة خلافة على أنقاضها، مستندة إلى توازنات القبائل ومصالحها، والغرائز التي استعادت صخبها السابق على الإسلام.

وفي هذا السياق أيضاً، كانت التهمة الأكثر شيوعاً، ومحورها موقف المؤرخ الأمين من صلاح الدين الأيوبي، ذلك الموقف الذي أثار جدالاً عنيفاً في تسعينيات القرن الماضي، من دون تقدير موضوعي للمعطيات التي أخذت به في هذا السبيل، يقول حسن الأمين مسوّغاً حملته على القائد الأيوبي في الكتاب الذي اندرج تحت عنوان "صلاح الدين بين العباسيين والفاطميين": إذ رأى القارئ في ما نقدّمه إليه في هذه الصفحات شيئاً غير مألوف لما في ذهنه عن صلاح الدين، فهو لن يرى إلا حقائق مدعومة بالنصوص التاريخية المدوّنة في أمّهات الكتب.. ونحن في كل ما كتبناه.. لم نبغ إلا وجه الحق كشفاً عن حقائق تاريخنا التي عمل على طمسها المبطلون".

إن ثمة اعتقاداً لدى بعض المؤرخين والمثقفين، لا سيما أولئك الذين ساجلهم حسن الأمين وساجلوه في موضوعة صلاح الدين، أن حملته على الأخير تنطلق من خلفية مذهبية، تتسوّغ بموقف السلطان الأيوبي من الشيعة. ولأنني ربما من أكثر الذين عرفوه عن كثب، مفكراً متنوّراً وشخصية متحررة من العقد والرواسب، أجيز لنفسي رفض هذه التهمة بالمطلق، فما لمست إبان علاقتي المديدة معه، شيئاً من التعصب لطائفة أو مذهب، وإنما كان الفكر الإنساني الذي أفاح فيه، مؤمناً بالإسلام رسالة حوار وانفتاح وتواصل حضاري بين الشعوب، ومفعماً بالعروبة تراثاً وثقافة وقضية قومية متوهجة. وإذا كان صلاح الدين قد حقق انتصاراً على الصليبيين، كان الأبرز في تاريخ الإسلام بعد معارك الفتوح، فإن ثمة ثغرات في هذا الانتصار وما حوله من مواقف، ليست خارج النقد الذي كان لحسن الأمين نظرته الخاصة في سياقه، والمنطلقة من النصوص المعاصرة لتلك المرحلة.

وإذا كنت من المقدّرين لأهمية المعركة التي انتصر فيها القائد الأيوبي في حطين، ومن المعترفين بأنها هزت الكيان الصليبي في المنطقة الشامية، إلاّ أن هذه المعركة المظفرة، لم تأتِ من فراغ،أو تشكل سابقة في ذلك الحين، فقد كان للصحوة التي انطلقت من الموصل مع الأتابك مودود، وشدّ أزرها جهاد ما عُرف بـ "المتطوعة" الشجعان، الدور الكبير في إعادة الموازين في الصراع لمصلحة المسلمين، حيث الفصل الأول في هذا التحوّل، معركة طبرية التي مني فيها الصليبيون بهزيمة قاسية (٥٠٧هـ). هذه المعركة علق عليها مؤرخهم "وليم الصوري" قائلاً: "وحتى الملك رمى الراية التي كان يحملها بيده ونجا بصعوبة من المذبحة.. وانضم هؤلاء (العرب) ـ ويقصد المقاتلين من قبيلتي طيء وكلاب ـ إلى كتائب الأعداء وعلّموها كيف تتولى إبادتنا.. وبالاختصار فقد حوّلوا المملكة بأسرها إلى حالة كبيرة من الرعب، بحيث لم يجرؤ أحد على المغامرة بالخروج من داخل الحصون".

ومن الموصل أيضاً كان انطلاق مسيرة التحرير الفعلية بقيادة الأتابك عماد الدين زنكي الذي اجتاح الرها (٥٣٩هـ) أولى الإمارات الصليبية في الشرق، وتحوّل بعد سقوطها إلى الشام، مشدداً الضغط على دمشق، ولكن اغتياله حال دون السيطرة على هذه المدينة المهمة، فقد كانت هذه حلقة أساسية في المشروع الزنكي الهادف إلى وحدة المنطقة (الموصل ـ الشام ـ مصر) تمهيداً للانقضاض على الصليبيين وإخراجهم من بلاد الشام. وكان قطب هذا المشروع والمعلقة عليه الآمال في ذلك الوقت، نور الدين محمود الذي ورث عن أبيه "زنكي"، الجرأة والحماسة، متأثراً ـ إلى ذلك ـ بمناخ ثقافي إسلامي، نشأ في ظله وجعله أكثر انخراطاً في حركة الجهاد، وتشبّعاً بروحها، وانتظاماً حينذاك في مسيرتها المتوهجة. وفي الوقت الذي تمّت فيه السيطرة على دمشق، كانت الخلافة الفاطمية تتهاوى في مصر، فلم يتردد نور الدين في تلقف الفرصة، موجّهاً إليها القائد الأيوبي المُقرّب منه "شيركوه"، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الذي رافقه على غير رغبة منه، دون أن يدرك حينئذٍ ما تخبئه تلك الرحلة "الممقوتة" من تحوّل جذري في مسار حياته. فقد كان الحظ بانتظاره، كما لم ينتظر أحداً بهذه السهولة من قبل، إذ سرعان ما توفي عمّه، في وقت كان الخليفة الفاطمي "العاضد" على شفير الانهيار، فاستعان بالفقهاء على عزله، ليصبح الرجل القوي في مصر، متنكراً في الوقت عينه لولي نعمته الذي لم يجد بداً من إعلان الحرب عليه، إلا أن الحظ مرة ثالثة كان حليفاً له، حين توفي نور الدين وهو يعدّ للهجوم على مصر.

وهكذا بات صلاح الدين في الموقع الذي ابتغى نور الدين أن يكون فيه، مصادراً تراث الزنكيين في جهادهم لتحقيق وحدة الجبهة الإسلامية المناوئة للصليبيين، وإذ بدا حريصاً على التماهي معهم في مشروعهم الجهادي، محققاً إنجازه الكبير في حطين، إلاّ أن أسلافه الأتابكة، لا سيما نور الدين كانوا أكثر شغفاً بالقضية التي ناضلوا في سبيلها، وأكثر صفاءً في التعبير عنها، مؤسسين، بجدارة، حالة الصحوة الإسلامية التي قطف ثمارها صلاح الدين.

وكان ذلك ما لفت حسن الأمين في قراءته الشمولية للمرحلة، واجداً في بعض ممارسات القائد الأيوبي ما يشين تاريخه، وما يسيء إلى انتصاره الكبير. فقد استفزته تلك المساومة مع الملك الإنكليزي، أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة، والتي انتهت إلى نتائج لا تليق بذلك النصر.

ولقد رجع إلى عدد من مؤرخي المرحلة، ومنهم من كان معاصراً للمفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد، مثل ابن شدّاد الذي يروي في كتاب "الأعلاق الخطيرة" ما يدين القائد الأيوبي، إذ يقول: "لم تزل (حيفا) في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين (وخمسماية)، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزله عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم سنة ثمان وثمانين وخمسماية، ولم تزل بعد في أيديهم". وعن "الرملة" يروي هذا المؤرخ القريب من صلاح الدين: "ولم تزل في يده إلى أن وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج...". وعلى غرار ذلك يحدث ليافا وعكا وصور وطرابلس وإنطاكية التي تنازل عنها ـ بشهادة المقريزي ـ للصليبيين.

لم يجد المؤرخ الأمين ما يسوّغ هذه التنازلات من جانب قائد حقق لتوّه نصراً كبيراً، من دون أن تكون حجّته مقنعة له، بضعف جيشه وعدم قدرته على الاستمرار في الحرب. وإذا صحّ ما زعمه صلاح الدين فيما سلف، فإن وضع الصليبيين لم يكن أفضل حالاً، بعد الضربة القاسية التي تلقوها في حطين، فيما لم تخلُ الحملة الثالثة المعوّل عليها لإنقاذ الموقف الصليبي الصعب، من تناقضات بين قادتها (ملوك فرنسا وألمانيا وإنكلترا)، الأمر الذي دفع الملك الإنكليزي إلى التفاوض مع صلاح الدين، وعلى العكس من ذلك نجد المؤرخ الأمين يمجّد انتصارات القائد الأيوبي، وما أدت إليه من تعزيز للجبهة الإسلامية، قائلاً: "لا شك أن النصر في حطين كان مؤزراً، ولا شك أن ما أسفرت عنه المعركة من استرداد القدس كان إنجازاً عظيماً"، ولكنه يضيف متسائلاً: "إلى أي مدى أمكن استغلال هذا النصر، وإلى أي نتيجة عملية وصل؟".

يقول المؤرخ الأمين في محاولة الإجابة على ذلك: "إن صلاح الدين آثر الراحة بعد العناء، والتسليم بعد التمرد، فأسرع يطلب إلى الفرنج إنهاء حالة الحرب وإحلال السلام.. وما وراء ذلك اعتراف بوجودهم وإقرار لاحتلالهم ودولتهم، وسمى ذلك هدنة. ويبدو ذلك جلياً أن الصليبيين قد استغلوا هذا الطلب أحسن الاستغلال، فاشترطوا لقبول الهدنة أن يعاد إليهم الكثير مما أخذه صلاح الدين منهم بعد النصر في حطين.. وعُقدت لهم الهدنة في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨هـ، وقبض الصليبيون الثمن الباهظ لقاء قبولهم.. فأعاد إليهم حيفا ويافا وقيسارية، ونصف اللد ونصف الرملة، وغير ذلك، حتى لقد صارت لهم فلسطين إلا أقل القليل، ولم يكن لهم ذلك من قبل".

إن المؤرخ الأمين في قراءته النقدية للهدنة، يتبدّى لنا مثقلاً بالمرارة إزاء ما حدث من تداعيات جاءت في مصلحة الصليبيين الذين سيطول بقاؤهم في المنطقة أكثر من قرن، بدل أن تعجّل حطين في انكفائهم وإخراجهم منها. فهو لم يتعمّد المواجهة أو يفتعل الهجوم، للتقليل من شأن القائد الكبير، وإنما كان سبيله إلى هذه القراءة، ما رواه

المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، وجلّهم كان متعاطفاً معه، أو ملتحقاً بخدمته. وهو نهج دأب عليه مؤرخنا في دراساته، فلا ينفك جذرياً في "محاكماته" على صفحات التاريخ، ولا مجال عنده لتوليف المواقف، كما ليس من طبعه قبول المساومة على المبدأ، أو ترويض عقله على غير مقولة الحق، ما جعل البعض يخطئ في فهمه، فينعته بالتعصب، وهو بعيد كل البعد عنه. وقد أثير حول هذه المسألة سجال في الصحافة، كان طرفاه الأمين الذي أخذ على صلاح الدين تبديده "النصر المظفر" ــ حسب تعبيره ــ والرضوخ لصلح مشين، ومجموعة من المؤرخين والكتّاب، ممن استقرّت في وعيهم صورة "البطل"، رافضين قبول اتهامه بالتخاذل، على الرغم من توثيقها بنصوص المؤرخين المعاصرين له. وقد أدرج الأمين تلك المادة السجالية في كتابه الخاص بصلاح الدين، في مبادرة تفصح عن سعة صدره في قبول الرأي الآخر، وإن جاء بعضه خارج الحوار العلمي والرؤية الموضوعية الهادئة.

ولقد خاض حسن الأمين في الواقع تجربته مؤرخاً بهذا الصفاء في النفس، ولم يكن ممكناً فصل قناعاته عن مسار القضية التي يكتنه أبعادها بعقله وقلبه، من دون أن يتخلى عن ثوابت المبدأ على امتداد البحث.. وإذا كان في هذا المنهج اختلاف عمّا يراه آخرون في منهاجهم الذي يجعل المؤرخ في عالمه، مجرّداً من المشاعر، ملتزماً ما حدث وليس ما ينبغي أن يحدث، فإن الأمين القادم إلى البحث التاريخي من موقع القاضي العادل، ليس بوسعنا إخضاعه بالمطلق لشروط المؤرخ بآلياته وأدواته بما حققه من دور بارز على هذه المساحة، مؤسساً بجدارة لمدرسة في الكتابة التاريخية، كان التجديد واستفزاز النص والتحليل المبدع، من ركائزها الأساسية.

وأخيراً، فإن من عناصر هذه المدرسة، أن التاريخ من منظور حسن الأمين لم يكن الماضي ما يأسن فيه، منقطعاً بكليته عن الحاضر، وإنما كان ثمّة نبض للمستقبل في الرؤية المتوهجة، وربما الحالمة أحياناً له، فقد كان في كل ما كتبه مؤرخ قضية، على مدى التراث الإسلامي، منحازاً إلى المبدأ ضد الانحراف، وضد العدوان على الأمّة، فها هو وقد اقترب من القرن في حياته الصاخبة، يجسّد القضية ــ الحلم في آخر كتبه الصادر قبل عامين من وفاته بعنوان "غارات على بلاد الشام"، والذي ختمه بأغلى أمنياته، حيث تمنّى لو تحقق له كتابة تاريخ الانتصارات واسترداد العزة والأرض العربية.

فلعلّ هذا اليوم غير بعيد، والذين سيكونون فيه، سيذكرون حتماً المؤرخ الذي عاش في محراب العلم، مكرّساً حياته لوجه الحقيقة.